غيوم أبو تينير وبعض شعره

ت: لطيفة ديب

ولد "غيوم أبو لينير" في "روما" عام ١٨٨٠ في آب، ضابط إيطالي يدعى "فرانْشيسْكو فْلوجي داسْيرْ مونْتْ " FRANCESCO FLUGI D,ASPERMONT، وأم تدعى "أَنجيكا دُ كوسْتْر ويْسْتزكي" WITZKYROANGELICA DE KOST ابنة أحد نبلاء بلاد "البلطيك" الذي كان منفياً إلى "إيطاليا" وقد تزوّج فيها. عاشت هذه المرأة حياة مضطربة وقد جرت معها ولديها "أبو لينيرْ" وأخاه الفتيّ في ملابسات ونزوات حياتها غير المستقرة. فعاش "أبو لينير" مراهقته بين صخور "موناكو" ولعبة الروليت التي تشتهر بها. تلقى دراسته في الثانوية الشهيرة "سانْ شارْلْ" SAINT- CHARLES في "موناكو" ثم في كانْ CANNES وفي ثانوية "نيسْ" LYCEE DE NICE حيث اكتسب رفاقاً مختلفي الجنسيات، وتذوّق كتباً قيّمة وفائقة العدد فكانت مصدر تبحّر مدهش لكنه متوزّع. ومنذ عامه الثامن عشر ظهر مولعاً بالفوضوية(١). انتقل بالتدريج إلى "باريس"، وفي العام ١٨٤١، عرف أكبر مخاطرة سببها رحيل أمه المفلسة.

---

(1) الفوضوية: نظرية سياسية تقول بالتعاون الطوعي بين الأفراد أو الجماعات وأن الدولة أكبر أعداد الفرد وتجب إزالتها.

فاضطر إلى أن يعمل مساعداً (١)، لدى مؤلف روايات مسلسلة، ومستخدماً في مكتب، ثم عمل خلال سنة، مدرّباً لابنة فيكونْتيّة فرنسية. ألمانية في "قصر نور غلوكْ" CHATEAU DE NEU- GLUCH في "ريناني" RHENANIE.

وفي عطلته الشتوية سافر إلى "برلين" و"ميونخْ" وبراغْ و"فيينّا". وعرف أكبر مغامرة عاطفية مع الإنكليزية الشابة "أنّي بْلايْدِنْ" PLAYDEN ANNIE المربية في القصر. وذهب إلى "لندن" وطلب يدها من والديها اللذين، رفضاه. فكان لهذه الصدمة صداها في قصيدته الشهيرة "نشيد من أسيء حبه". ونراه في أعماله كافة يطبق النظرية القائلة: "الوزن والوقوف في الأشعار هما علامات الوقف الحقيقية" فجاءت قصائده خالية من علامات الوقف، الأمر الذي ساد في القرن العشرين مع التجديد في الشعر. تزوج زواجاً سعيداً لكنه أصيب بالوافدة الإسبانية"

وتوفيّ على أثرها عام ١٩١٨ ولم يكن مضى على زواجه سوى بضعة أشهر.

نشيد من أُسيء حبه

عندما عاد أخيراً
"أليس" الحكيم إلى وطنه
تذكره كلبه الهرم
وبقرب سجادة عمودية الدى
كانت زوجته تنتظر عودته

زوج "سَكونْتالْ"(٢) الملكيّ
الذي ملّ الانتظار ابتهج

---

(1) يعد أو يكتب أثراً أدبياً أو فنياً لغيره.

(2) سكونْتالا: زوجة الملك "دوخْمانْتا" في الأدب الهندي

عندما رآها ازدادت شحوبا
بفعل الانتظار والحب وخبا نظرها
رآها تداعب ظبيها

فكرتُ بهذين الملكين السعيدين
عندما جابهني
خيال الحب الزائف
وتلك التي ما زلتُ مغرما بها
فجعلاني شديد الحزن.

حسرات يُبنى عليها الجحيم
عالم من النسيان تبدّى لناظري

من أجل قبلة منها ملوك الأرض
كانوا سيموتون وهم ذوو الشهرة
مساكين من أجلها كانوا سيبيعون ظلّهم

شتّيْتُ في ماضي عمري
فَلْتَعُدْ شمس "الفصح"
لتدفئ قلبا مُجمَّدا
أكثر من "الأربعين سيباسْتْ"(١)

(1) إشارة إلى الجنود الأربعين من الرومان الذين استشهدوا في الجليد بـ "سيباستْ" من أجل إيمانهم بالمسيح.

الذين لا يعادل استشهادهم آلامي

أيها المركب الجميل! يا ذاكرتي
هل أبحرنا بقدرٍ كافٍ
في ميابهٍ عكرةٍ لا تُشرَب
هل شردنا بقدر كافٍ
من الفجر الجميل حتى المساء الحزين

وداعاً أيها الحب الزائف المذهل
الذي تبادلته والمرأة التي تبتعد
تلك التي فقدت
السنة الماضية في "ألمانيا"(١)
والتي لن أرى بعد الآن.

أيتها المجرَّة! أيتها الأخت المنيرة
من أنهار "كنعان" البيضاء
ومن الأجساد البيضاء أجساد العاشقات
نحن السبّاحين الميتين هل سنتبع مرهقين
مسيرتك نحو نجوم أخرى سديمية...

إن شياطيني المصادفة تنقلنا
تبعاً لنشيد الجلَد

---

(1) البيت يؤرخ القصيدة بالضبط.

على أنغام زائلة يُرَقّص
كمانها جنسنا البشري
على طريق الهبوط متقهقرين
أقدار أقدار غامضة
ملوك يهزهم الجنون
وهذه النجوم المرتعشة
نساء زائفات في أسرّتكم
المهجورة التي سَيُعَنِّفها التاريخ

يونيو شمسك كنارة ملتهبة
تحرق أصابعي الموجعة
بحران حزين ورخيم
أهيم عبر باريسي الجميلة
فلا أجرؤ على أن أموت فيها

أيام الآحاد تدوم فيها
والأراغن الصغيرة المتنقلة
تنتحب في الساحات الرمادية
والأزهار على شرفات "باريس"
تميل مثلما يفعل برج "بيزا"

أمسيات "باريس" السكرى بالجينْ
المشتعلة بالكهرباء

عربات الترام أضواء خضراء في حلية التاج
تعزف على طول مدى
السكك تدلهات المكنات

المقاهي المنتفخة بالدخان
تعلى عالياً حب موسيقاها البوهيمية
من أنابيبها المزكومة كافة
من جميع نُدُلِها المرتدين وزرة
نحوكِ أنتِ التي لشدّ ما أحببتُ

أنا الذي أعرف قصائد للملكات
أغاني العمر المأساوية
أناشيد أسير الشبق
قصيدة من أسيء حبه
وأغاني للنساء الفاتنات

أما أعمال "أبو لينير" الأكثر إثارة للأحزان فهي تلك التي يتفجّر فيها تأثره المحزن بشكل تغريمي. لقد عرف سويداء الوحدة وتطلّع إلى تملص لم يتحقق فانطلق أنينه الذي يبعث على الحزن بأنّات ذات إيقاع خفيّ وصفاء ظاهر. غير أن هذا الرومانسي كان أيضاً رائد الفن الحديث. فبجرأته وتكراره المحاولات والاقتراحات، ساهم في توجيه الشعر الفرنسي نحو مسالك لم يسبق ارتيادها، مبيّناً "إرادته في أن يكون شاعراً حديثاً سواء في الشكل أم في الموضوع".فقصيدته "حسب ميرابو" التي تبدو عادية لأول وهلة، تصلح موجعة، مؤلمة من فرط بساطتها وإثارتها.

جسر ميرابو

تحت "جسر ميرابو" ينساب نهر "السين"
وحبنا
لماذا تعاودني الذكرى
كان الفرح يعقب الألم دوماً
فليأتِ الليل ولتحن الساعة
تمضي الأيام وأنا أبقى

يداً بيد لِنَبْقَ متقابليْن
بينما تحت
جسر أيدينا تمرّ
أمواج نظراتنا السئمة
فليأتِ الليل ولتحن الساعة
تمضي الأيام وأنا أبقى

يمضي الحب كهذا الماء الجاري
يمضي الحب
يا لهذه الحياة كم هي بطيئة
ويا لهذا الأمل كم هو أليم
فليأت الليل ولتحن الساعة
تمضي الأيام وأنا أبقى

وتمرّ الأيام وتمرّ الأسابيع

فلا الزمن الماضي

يعود ولا حبنا

تحت "جسر ميرابو" ينساب نهر "السينْ"؛ إنه البيت الوحيد الذي يصف فيه الشاعر الواقعَ الخارجي. ثم ينفرد في عالمه الشخصي فيقرن انسياب الماء بكرّ الأيام وينقلنا إلى ماضيه "لماذا تعاودني الذكرى" لكأنه يأسف لاسترجاع الذكرى... فالسياق الاستفهامي يولد شعوراً بقلقٍ سئم... ويعارض هذه الكآبة البيت التالي من المقطع الشعري الأول:

"كان الفرح يعقب الألم دوماً". لكن ذكرى هذا الفرح ليست سوى غمّ إضافيّ... ويترجم الشاعر استسلامه لكرّ الأيام قائلاً "فليأت الليل ولتحن الساعة" غير أنه يتبيّن بألم "أنه باقٍ"... فلا يُستثنى من التغيير إلا ليستمرّ في الألم...

وتتضح الذكرى؛ فالأمر باللام "لِنبْقَ" يترجم رغبة الشاعر في جعل الماضي حاضراً فينتزع منه صورة الحبيبين المتقابلين وقد شكّلت أيديهما المتشابكة والمتقابلة ضفتي النهر... وتتكرّر اللازمة وقد أثقلها السأم المتزايد والألم الناجم عن عدم إمكانية العبور... والخلاص... ويبدو الشاعر عاجزاً عن السيطرة على أحزانه فيتابع مناجاة نفسه: "الحب يمضي كهذا الماء الجاري"، "ويا لهذا الأمل كم هو أليم!"... ويكرّر اللازمة معبّراً عن استمرار الأسف. وعلى الرغم مما تتصف به هذه القصيدة من "جدّة" جليّة (غياب التنقيط، إلغاء كل إشارة منطقية... وتتالي الصور الغامضة)، فهي، في الواقع، واضحة وشديدة الإيحاء.

□□